نجوم .. لا شهب :

عبد العزيز البشري

ممدوح فاخوري

وهذا أديب فنان ، لم يسع الى الشهرة ، ولم تسع الشهرة اليه . مرّ بدنيا الأدب مرور الضوء الساطع، يضيء ويلمع ، ولكن ضوءه ولمعانه لم يكونا من النوع الذي يبهرويخلب، ثم يمضي لا وقع ولا أثر . وكان يمكن لضوئه ولمعه أن يتركا من الدوي والأثر أكثر مما تركا ، لولا أن سحابة كثيفة من ظروف عيشه وطبيعة عمله بين الادارة والقضاء ، وفي غمرة مجتمعه عامة ، كانت تحجب الكثير من بريقه وألقه ، وتبقيه في ظل مديد الجناح بعيد الأطراف ، لا يجد ما يقصيه عنه قيد انملة ، ولا يرى هو رغبة في محاولة اقصائه عنه ، وزحزحته من طريق تطلعاته وآماله .

وليس همنا هنا ، بطبيعة الحال ، أن نترجم لأديبنا هذا ، وان كانت الترجمة ولو بأوجز عباراتها أمراً لا بد منه ، لتعريف القارىء بما ينبغي عرفانه عن حياته ونشأته وعوامل تكوينه وظروف عيشه ، ولالقاء شيء من الضوء على شخصيته ومزاجه ، على أننا سنركز على الجانب الذي يتصل بأدبه وفنه، فليس من شأننا أن نذكر كل دقيقة من دقائق حياته ، الا ما كان منها يلقي مزيداً من الضوء على طبيعة شخصيته ومزاجه ، دون أن يتسبب في ادخال ملل في نفس ، وازهاق روح من غير ذنب ...

☐ شخصية فريدة :

الأديب الذي نحن بصدد الكلام عليه هو الشيخ « عبدالعزيز البشري » . ولد سنة (١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م) وتوفي سنة (١٣٦٢هـ/١٩٤٣ م) . نشأ في بيت علم ، فقد كان أبوه الشيخ « سليم البشري » عالماً بالدين ،وشيخاً للجامع الأزهر مرتين (١٨٩٩ - ١٩٠٩) .

درس في الأزهر ، ومارس الأدب فلقي فيه ذاته ، وخص له حياته ، ولكن عمله بين القضاء والادارة حد من نشاطه الأدبي وقيّده ، وقصره على المقالة فافتنّ فيها وأطرف ٠

أما (شخصيته) فكانت فريدة فذة نادرة المثال ٠ واذا كان الانسان مزيجاً من لحم ودم وأعصاب ، فقد يخيل الينا أحياناً أن نسبة ما (يحتويه) فرد من هذه العناصر مختلفة عنها في غيره ، فهناك (السعيد جداً) بما خص به من لحم متكتل وبطن متهدل ، يزينه بطبيعة الحال — حسّ هامد وعقل جامد ورأس خاوٍ لو نقرت عليه لطنّ ٠٠٠ وهناك (الشقي جداً) برهافة حسه ورقة طبعه ومشاعره ، فهو في عذاب دائم مع نفسه ومع الناس ٠٠ والزمان ، لولا ما يسري بعن نفسه ويجلو من سويداء روحه ، من حب لكل جميل فاتن ، سواء كان أدباً أو طبيعة أو لحناً أو نكتة بالغة ٠ وربما كان من هذا الصنف من الناس أديبنا « البشري » ، وقد وصفه « طه حسين » بقوله :

« ٠٠٠ انه قوي الحس الى درجة نادرة حقاً ٠٠ سريع التأثر والتأثير ، فهو اذا أحس لا يكنّ ما أحسه ، ولكنه يعلنه ويظهره ، فهو يتلقى الأشياء مسرعاً ، ويعكسها مسرعاً ٠٠ » .

نحن اذاً تجاه « شخصية » فريدة غريبة الأطوار ، تقوم على مجموعة من الصفات قد تبدو متناقضة ، فهو — كما وصفه بعضهم — انسان « حسن العشرة ، بارع الحديث ، سريع الخاطر ، يجيد المفاكهة ، ويستضحك بنوادره الباكي الحزين » ٠ ولكنه كان في مقابل ذلك « عصبي المزاج ، يثور لأقل بادرة ٠ وفي سبيل ذلك يهدر الصداقة القديمة ، ومن أجل هذا المغمز كان الكثير من أصدقائه يتقونه ويتحاشونه ، ويخافون من سقطات لسانه ٠٠ » ٠

ومهما يكن من شأن هذه الصفات ، وتناقضها — ولو ظاهرياً — فهي صفات انسان رهيف الحس ، شاعري المزاج ، معذب برهافة حسه ومزاجه ٠ ذكر بعضهم انه كان في صباه يمضي الليل ساهراً ، ولا ينام الا غراراً ، فتحطم من ذلك جسمه ، وتضعضعت في الكهولة صحته ٠ وهكذا طوى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته مريضاً ، ما يكاد ينقه حتى تعاوده العلة ٠٠ أضناه المرض الوجيع حقبة من السنين ٠٠ » ٠

ولم يعدم ، مع ذلك ، وسيلة تخفف شيئاً من آلامه النفسية والجسمية ، من احتراق روحه وأعصابه ، من رهافة حسه التي وصفها المتنبي أو وصف أصحابها بقوله الجميل هذا :

أفاضلُ الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن

☐ مداواة الداء بالداء :

وكانت الوسيلة انغماساً في مزيد من الرهافة ، وفي مخالطة أناس في مثل رهافته ورقة وجدانه ، ومن هم غير الفنانين أمثاله وأصفياء روحه ، ولا سيما أهل صناعة الغناء ، من المغنين المطربين ، أمثال عبده الحمولي ، ومحمد عثمان ، وعبدالحي حلمي ، وغيرهم ٠٠ فكان كلفاً بفنهم ، كثير الصحبة والمخالطة لهم ، بل شديد الاستئثار بهم ، لا

يرى حقيقاً بمجالستهم وسماعهم الا من كانصاحب حس وذوق وحسن استماع • وكان يرى « أن الفن ابن الموهبة ، والمواهب ليستمن الحق المشاع لجميع الناس » •

وكان الى ذلك عالماً بفن الغناء ، عارفاًبأصوله وأنغامه • يقول في أحد « أنوار » الشيخ « سيد درويش » :

كان من أوالي بدعه في جد تلاحينه (دور ياللي قوامك يعجبني) ، وقد صاغه من نغمة ــ النكريز ــ • وأكبر الظن أنه لم يكن لموسيقار مصري عهد بهذه النغمة من قبل• وقد أجاد « سيد » في تلحين هذا « الدور »وخلب وراع ، فوق أنه طبعه على غير غرار معروف في مصر ، وصاغه على غير مثالقديمفيها أو جديد ! » • ودل على دقة حسه الموسيقي ، وانسجاه العفوي به ، فقال وهوفي صدد الكلام على ضرب من ضروبالغناء:

« لقد كنا نجد في هذا الغناء صورة بيّنة مما في نفوسنا ، حتى لكان يخيّل الينا أنه صادر عنها لا وارد عليها ، وكأننا نحنالذين لحنوه وصاغوه • فاذا لم يبلغ بنا لشعور هذا الموضع ، خلنا أنه لو كان أفضى الينابتلحينه وصياغته لما أخرجناه وصورناه الا هكذا • بل ان حسن السبك وقوة الصياغةلتذهب بنا الى الشعور بأن هذا الذي نسمع انما هو شيء من صياغة الطبيعة لا اثر فيهلصنعة الانسان •• » •

أي فهم ، وأي ذوق ! وأي روح لطيفةتدرك بالحس المرهف الدقيق ما قد لا يدرك بالدرس الممعن الطويل • واذا تذكرناالعلاقةالوثيقة بين الأدب والموسيقى لم يصعبعلينا أن ندرك سر اهتمام الكاتب بجمال أسلوبهوحسن صياغته ، ففي الشعر موسيقى ،وفي النثر المؤنق الجميل موسيقى ، تظهر فيتناسق الحروف وحسن المجاورة بينها ، وقد يزيد الكاتب على ذلك فتبرز أيضاً في قصر جمله وتوازن عباراته ، وشيوع ايقاع موسيقيبينها، نذكر هنا مثلا طه حسين في كتاباته الأدبية الخالصة ، وأحمد حسن الزيات ، ونذكرمن القدماء الجاحظ وابن العميد وأضرابهما •

☐ قيود •• وسدود :

الكاتب اذا وجد نفسه في الأدب والفن،وأرهفها وصقلها وسرّى عنها بالموسيقى التي وجد فيها صنو روحه وذوب وجدانه ،وسلوى نفسه الحبيسة في ارسام القيود التي تثقل روحه وتحزّ في أعصابه ، قيود الوظيفةوما تقتضيه من انكماشوحفاظ على المظهر، بما لا يلائم طبعه وجوهره •• فاذا كانالكاتب قد وجد نفسه في الأدب والفن ، فقد وجد نفسه أيضاً مشدوداً الطرفين متناقضين،بالقياس اليه على الأقل ، فهو يريد أنيذهب مع ميوله الأدبية والفنية الى أقصى مدى يريده ، ولكن طبيعة عمله ومركزه بين الناس تحد من ميوله هذه ، بل تقف سداً منيعاًبينهوبين ما يحب ، « فما كان يستطيع الكتابة بتوقيعه الصريح ، وكان يخشى أن تنسبمقالاته لغيره ، فكان يطلع أصحابه على ما ينشره ليعلم الناس أن هذه الجزالةاللفظية،وهذا الترف البياني والترصيع الانشائي كل أولئك من صنعة المترجم »(١) • وهذا فيذاته أمر شاق على صاحبه ، فالكاتب يحب

أن يكتب لينقـل شعوره الى الناس ، وليرى صدى شعوره هذا عندهم .. وهو يريد أن يرتد هـذا الصدى اليـه لا الى غيره أو الى « انسان مجهول » لا يعرفه الناس ولا يعرفون عنه شيئاً .. يريد أن يسمعوا نبض قلبـه ويحسوا وهج شعوره ، ويبادلوه نبضاً بنبض وشعوراً بشعور ، ولا يحب أن يختفي نبضـه في نبضات غـيره ، ويغيب شعوره في كهـوف معتمة تسمى قلوباً ، ولكنهـا لا تخفق بمايخفق به قلبه ، ويفيض به وجدانه ..

ولا شك أن اختفاءه وراء توقيعه المموه ، كاف وحده لتقليص شهرته في حياتـه . وتغييبها بعد وفاته. ولكن وراء خفوت صيته وغياب شهرته أسباباً أخرى ليس هنا مجالها، وقد أشرنا الى بعضها في مقدمة المقال ، وثمة غيرها سيحين أوانها ..

البشـري الأديب

ولكن .. ماذا عن « البشري » الأديب؟ وعن أدبه ؟ لنذكر أولا أنه أحد أفراد الجيل الأدبي الممتـاز الذي أعقب البارودي وشوقيـاً وحافظاً والمنفلوطي ، جيل طه حسين والعقـاد والمازني وتوفيق الحكيم والزيات والرافعي وأحمد أمين .

بعض هؤلاء تأبَّى على الوظيفة والقيد كالعقاد والمازني والحكيم والزيات ـ مـع بعد ما بينهم ـ واتجه بكليته الى الأدب فافلح وأصاب الشهرة التي يريد .

وبعضهم كطه وأحمد أمين مضوا في طريق شاق طويل يحفه الجهد والدرس والدأب، وقدّم نتاجاً كبيراً منوعاً كان كفيلا ببلوغـه الشهرة التي يستحق .

أما « الرافعي » فكان له ـ المزايا اختصت بها ـ صدر مجلة « الرسالة » ـ بعد افتتاحية صاحبها « الزيات » ـ ، ومع ذلك لم يقتصـر جهده على المقالة بل قدّم للمكتبـة مؤلفات متنوعة بعضهـا الأدبي الخالص كأوراق الورد والمساكين والسحاب الأحمر ، وبعضها النقدي .. وكان في الوقت نفسه يمثل مدرسـة ـ يحمل هو رايتها ـ تقف في مواجهة مدرسـة التجديد، وهي مدرسة « المحافظين » ، تصدّى فيها لعمالقة يعد نفسـه ندّاً لهم ويعدّهـم أنداده ، فزاد ذلك من شهرته وتألق اسمـه بين الكتّاب .

فما مكان « البشري » بين هؤلاء ؟ وأي مدرسة يتبع ؟ وما مدى شهرته بين الكتّاب والأدباء عامة ؟.

يجيب طه حسين عن بعض هذه الأسئلة أو أكثرها فيقول(٢) :

« كان عبدالعزيز مدرسة وحده في هذا الجيل ، لا تستطيع أن تلحقه بهذه البيئـة أو تلك من بيئاتنا الأدبيـة ، ولا تستطيـع أن تصله بهـذه المدرسة أو تلك مـن مدارسنا المنتجة في الشعر والنثر . وكنت أظن في أول الأمر أنه بقية مدرسة قد مضى أكثر أعضائها، بقية لتلك البيئة التي كان يضطـرب فيها المويلحي وحافظ والبابلي رحمهم الله ، ولكني رأيته يعرض لأشياء ما كان أحد مـن هؤلاء يستطيع أن يفكر فيها ، وما أشك في أن تلك

البيئة الطريفة اللبقة الموفقة لو اجتمعت كلها لكتابة فصل عن « الطيّارة » كالذي كتبه عبدالعزيز ، أو فصل عن أحمد ندا ، أو فصل عن حسن غندر ، لما ظفرت من ذلك ببعض ما ظفر به ٠٠ ومن أجل هذا أيضاً لم يكن عبدالعزيز مدرسة وحده فحسب ، بل كان مدرسة لا تلاميذ لها ٠٠٠ فنّه على سهولته ويسره وقربه من الناس جميعاً ، أرفع وأعسر وأشد استعصاء من أن يتعلق به المتأثرون والمقلدون ، ولذلك لم يتعلق به أحد ، ولم يحاول تقليده أحد ، وظل عبدالعزيز واحداً في فنه ، وسيظل واحداً في فنه » ٠

هل نستطيع أن نستخلص من رأي طه حسين الاجابة الصحيحة عن أسئلتنا المتقدمة؟:

١ ـ ما المدرسة التي يتبعها ؟٠

يرى طه حسين أن « البشري » مدرسة وحده ٠ ومهما يكن من قيمة هذا الرأي فانا أرى أن « البشري » كان أقرب الى مدرسة المحافظين ، مدرسة الرافعي والزيات ٠٠ ولا أرى مجالا لالحاقه بمدرسة « محمد المويلحي » صاحب « حديث عيسى بن هشام » أو لمجرد التفكير في ذلك ، لأن « المويلحي » كان أقرب الى ما يمكن أن نسميه « المدرسة التقليدية » التي تترسم خطا مدرسة الصنعة المتمثلة في طريقة « الهمذاني » و « ابن العميد » بل و « القاضي الفاضل » أحياناً ٠ ولم يكن « البشري » من هؤلاء وأضرابهم في شيء ٠٠

٢ ـ أما كونه مدرسة وحده ، ومدرسة لا تلاميذ لها ، فهذا يفسر شيئين ، أو يجيب عن تساؤلين :

آ ـ ما مكانه بين أدباء جيله ؟٠

أن يكون الكاتب مدرسة وحده، ويستطيع أن يبدع في كتابته عن « الطيارة » وغيرها ما لا يستطيع أن يبلغه أو يجاريه فيه كثير من مشاهير عصره ولو اجتمعوا له ، كاف وحده ليبرز لنا المنزلة العالية التي كان يتبوؤها اديبنا ، والقدرة التي كان يختص بها دون هؤلاء ، ودون كثير غيرهم أيضاً !٠

ب ـ ولكن ، ومع كل ما قلناه عن منزلة الكاتب وقدرته الفذة ، لم نره يبلغ من الشهرة مبلغ من ذكرنا من أدباء جيله ٠ أو أن شهرته بعد وفاته لم تحافظ على توهجها الذي كانت عليه في أثناء حياته ٠ ولعل طه حسين قصد أن يعلل ذلك بطريقة ذكية ، غير مباشرة ، حين جعل من كاتبنا مدرسة لا تلاميذ لها ٠ ونحن نقول ان ما تركه « البشري » ـ وهو لا يعدو فن المقالة ـ كان قليلا بالقياس الى غيره من الكتاب ، ومرهوناً بمناسباته وشخصياته ، وأكثرها محلي من جهة ، وظرفي « آني » يتصل بظروف سياسية عابرة ٠٠٠ ولو قرأنا مثلا كتابه (في المرآة) ، وهو أروع كتبه على الاطلاق ، بل « أول كتاب من نوعه في الأدب العربي »(٣) ، لوجدناه مزيجاً من أدب وتصوير ، أو « رسماً بالكلمات » وأي رسم ، وفيه الى ذلك سخرية بارعة تنبع من روح عذبة صافية ، لا من مرارة موغلة دفينة، ولكن أكثر موضوعات هذا الكتاب ، أو قدراً لا يستهان به منها ، يتصل بشخصيات لا تتجاوز

في شهرتها حدود القطر الذي « لمعت أنجمها» فيه ، والاطار الزمني الذي اضطربت في أثنائه ·· ومع ذلك تبقى للكتاب قيمته الأدبية التي لا تجحد · وسنعرض لبعض فصوله و « لوحاته » خلال عرض مقبل لخصائص أدبه وفنه ·

☐ خصائص أدبه وفنه :

ليس أشق ، في دراسة أدبية كهذه ، من أن تُخضع أديباً فذاً كالبشري لمنهج دراسي تقليدي يأخذ بالأديب من أقطاره كافة لينفرد بكل جانب من جوانبه درساً وتحليلا من غير مراعاة كافية لطبيعته ولتكوين مزاجه الأدبي الذي يتقبل لوناً أو ألواناً من الحياة ويتأبى على غيرها ، فلا نحمّله اذاً من أمره عسراً، ولا نحمّل أنفسنا عسراً فوق عسره · وأكثر ما ينسحب ذلك على الأديب الفنان ، المرهف الحس والشعور · ومن مثل أديبنا — وهو من عرفنا رقة طبع ورهافة حس — جدير بأن نجنبه هذا العسر ، ونبعده من هذا الامتحان ؟ ، وأن نقنع منه بما قنع هو به ورضيه لنفسه، فنتناول بعض آرائه الأدبية والنقدية ،وموقعه بين القديم والجديد ، ووصفه ، وجانب السخرية عنده ، وأسلوبه ولغته ·

☐ آراؤه الأدبية والنقدية :

لم يكن « البشري » دارساً أدبياً ، ولا مؤرخ أدب بالمعنى المفهوم لكلمتي دارس ومؤرخ، ولم يدّع هو ذلك ولم ينتصب له ، ولكن له آراء أدبية متناثرة في ثنايا بعض مقالاته ومحاضراته ، لا نجد كبير معوّل عليها الافيما يعين على جلاء بعض نواحي شخصيته وفنه·

فمن رأيه في الأدب أنه فن غير محدود الأطراف ، ولا ثابت الأبواب، بل هو «عرَض يتكيف ويتلون طوعاً لعقلية كل قوم ، وتاريخهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، والجو الذي يعيشون فيه ، وأسبابهم الخاصة ، ومبلغ شعورهم بالجمال ، بل بصور هذا الجمال أيضاً » ·

يستوقفني في هذا الرأي قوله: « ومبلغ شعورهم بالجمال ، بل بصور هذا الجمال أيضاً » ، وأتجاوز اشارته الى صلة الأدب بعقلية القوم وتاريخهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وما اصطلح على تسميته بالبيئة والمحيط ،لكثرة ما تداولتها الألسنة وفاضت بها المحابر والأقلام ··

ثمة اذاً ، في رأي الكاتب ، تمايز في الشعور بالجمال بين قوم وقوم ·· يزيد حظ أمة منه حتى ليغدو أبرز مميزاتها ، وأخص صفاتها ، ويقل حظ أخرى منه أو يتوسط فلا تذكر به ولا يذكر بها لأسباب لا حيلة لهافيها ولا يد ! وهو رأي مهما يكن حظه من الصواب ، لا يصدر الا عن أديب فنان ، يتعلق بالجمال ، ويقدر أهله ·· لا ينظر الا به ، ولا يصدر الا عنه ، ولا يهنأ الا به في مصبحه وممساه !

والجمال مرتبط بالحس والذوق والطبع، وهي أمور لاصقة بطبيعة الأمة خالصة لها خاصة بها ، لا يمكن أن يقع « التقارض » عليها ، يقول(٤) :

« ان العلوم والصناعات وما اليها ، أمور يمكن أن تتقارضها الأمم ، أما الأذواق وخلجات النفوس ونزوات العواطف ، فمما لايقع عليه التقارض والاعارة ، وان جاز لأمة أن تقلد أخرى وتحذو حذوها في طريقة الأداء وأساليب الاستقراء والتحليل، وليس معنى ذلك تحويل الأذواق أو تلوين العواطف ! ».

□ الأدب الصحيح :

والأدب الصحيح في رأيه هو الأدب الذي يعبر عن عصره ، وينطبع به ، ويدل عليه ، مهما اختلفت أساليب أصحابه وتباينت تعابيرهم ومذاهبهم في فنون البيان والقول ، وهو يأخذ على أدب مصر والشام بعده عن عصره وحياة عصره ، بل انك حين تقرأ للفيف منهم لا تصدق أنهم في عصر واحد وأمة واحدة !يقول في هذا المعنى(٥) :

« والواقع أنه مهما تختلف لهجات المتعاصرين من الأدباء ، في أية أمة من الأمم ، وتتغاير أساليبهم في فنون البيان : شعراً كان أو نثراً ، فانك ولا ريب واجد لمجموعهم طابعاً خاصاً يدل على عصرهم ، ويميزهم عن غيرهم ، بحيث يتهيأ للناقد الخبير أن يستدل من نفس البيان على العصر الذي انتضح فيه دون أن يرفد بأية اشارة اليه ، ولكنك مع هذا لا تستطيع أن تجد اليوم هذا الطابع للأدب في مصر ، وتستطيع أن تزعم مثل هذا عن الأدب في الشام .. وعلى الجملة ، فانك لو تصفحت هذا الأدب المصري القائم لرأيته موزعاً بين حياة في الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الاسلام ، وبين حياة في بغداد أو الأندلس ، فيما يلي ذلك العصر ، وبين حياة في لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو . ولكن أين هذا الأديب الذي يعيش في مصر ، ويصور عواطفه المصرية التي يلهمها ما ينبغي أن يلهمها المصري من عواطف واحساس ؟ » .

ثم يقول(٦) :

« عندنا شعراء عظام ، وكذلك عندنا كتّاب عظام ، على أنك حين تتلو آثارهم وتقلّب النظر في ألوان بلاغاتهم ،لاتصدق ـ لولا انك تعيش فيهم ـ أنه يجمعهم عصر واحد في أمة واحدة ! » .

وقد يقودنا هذا الى بيان بعض آرائه في التجديد ، وموقفه بين القديم والجديد ..

هو أولا يسمو الى التجديد ، ويتحمس له ، وينكر الجمود :

« .. فخلق من أدبائنا لم يسلّموا قط بأن الأدب شيء يعدو شعر امرىء القيس وعيش امرىء القيس .. »(٧) .

ولكن له فهمه للتجديد :

« اذا كان من آيات الحياة في الكائنات تطورها ونموها وتجددها ، فالأدب ولا شك

من هذه الكائنات التي لا تكتب لها الحياة إلا على التطور والنمو والتجديد ، والا كان ميتاً ، أو أشل على أيسر الحالين !

•• ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصروله مقومات ، وله شخصية بارزة معينة ،فمن شاء فيه تجديداً ـ وحتم' الحتم على القادرين أن يجددوا ـ فليتقدم، ولكن من هذه السبيل». (٧ مكرر) •

ولا حرج على المفتن' المجدد أن (يقتنص) من فنون الأمم الأخرى ، ولكن !(٨) :

« •• لقد تفتر الأذواق في مبتدأ الأمرعن الجديد ، ولكنها سرعان ما تألفه وتتذوقه وتلتذه ، مـا دام يمت الى فن القوم بسبب ،ويدلي اليه بنسب ، ولا حرج على المفتن' ، بل ان من واجبه أنه اذا حرك عواطفه ، وهزمشاعره شيء من آثار فنون الأمم الأخرى ـ أن يبادر الى اقتناصه ، ويسرع الى معالجتـه بالتسوية والتثقيف ، حتى يتسق لفن قومه، ويطبع بطابعهم ، ويسوغ في مذاقهم ، حتى ليترجم عن بعض ما يعتلج مـن العواطف في نفوسهم •

أما أن يهجم على القطعة من فن غيره فينتزعها انتزاعاً ، ويمتلخها امتلاخاً ، على حين لا يتذوقهـا هو نفسه ولا يسيغهـا ، ولاهي مما يمكن أن يسيغه قومه أو يتذوقوه ، ومع هذا يأبى الا أن يستكره استكراهاً علىفنهم باسم التجديد ، فذلكم لعمري هو المسخ والتشويه ! » •

☐ الصدق الفني :

ويرى أن الصدق ، والصدق وحده ، هو الذي يضمن تعبير الأدب عن ذاته، ولاريب أن من يصدق في التعبير عن ذاته وشعوره ،لا يمكن أن يخرج عن زمانه ومكانه ولوشاء! يقول(٩) :

« قال المتقدمون : ان أعذب الشعر أكذبه ، وهذا كلام صحيح اذا اتجه على أنأعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا مـا وقـععلى مجرد تقرير الحقائق الثابتة • ولكننـا اذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحيهـذا الموضوع رأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : **ولسنا نعني بالصـدق هنا المطابقـةللواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وانما نريد به الصدق في الترجمة عن شعور الشاعر**فأعذب الشعر في الواقع هو الذي ينفض عليك ما يعتلج في نفس الشاعر ، وما يتمثلحسهفي ادراكه للأشياء » •

مثل هذا الفهم العميق لمعنى « الصدقالفني » لا يمكن الا أنيلفتالانتباهويستأثر بالاعجاب ، وبخاصة حين يصدر عـن أديبتملي عليه السليقة والتجربة ، لا الثقافـة المكتسبة ، والآراء المجتلبة ، وتُنطق لسانه،بما يسبق بـه زمانـه ••• والحق أن فهماً للصدق الفني على النحـو الذي نراه عنـد« البشري » ، يميز بـين « صدق الشعور » وصدق الواقع ، خليق أن يدفعنا الى أن نقفمنه على جوانب ظلت خافية ، وسرُّ خفائها أن الكاتب لم يكن من همه أن يكون دارسـاأدبياً أو مؤرخاً من مؤرخي الأدب في عصره ،

فان طلع برأي أدبي ففي سياق عام لا يرتصد لهذا الرأي وحده ، ولا يجعله محوراً يدير حوله البحث أو الأبحاث التي تتصل بـه أو تفيض فيه على طريقة الدارس والباحثين، وانما هي اللمحة الدالة ، والخاطرة الموحية ، وبحسب القارىء منها أن يلقى فيها غنيته ، وان لم تشف غلّته .

ولو تتبعنا مثل هذه اللمحات البارعة لدى الكاتب لوجدنا منها الكثير ، نجتزىء منها ما يلي ، بنصها :

☐ **مضار الصنعة :**

« ان الاحتفال للصنعـة في الشعر ممايضر في الترجمة عن صادق الحس . وكلما أمعن الشاعر في الاحتفال للصنعة ازداد بالضرورة التراخي بينه وبين نفسه » .

☐ **وظيفة الخيال(١٠) :**

« من البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم في فنون المعاني لمجرد العبث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . انما الغاية كل الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريقة بديعة لهذا الذي أدركته من الواقع ، أو تترجم لك عما يدق عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى من أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكه وتسويته » .

فيض الشاعرية يتجاوز مدارك الشاعر نفسه(١١) :

« ان من الشعراء ، وأعني بهم بالضرورة من يستحقون هذا الاسم ، من تتخطى شاعريتهم أفق مدراكهم ، فنراهم يصيبون من المعاني ما لا تتعلق به ، في العادة ، أذهانهم . حتى لو راجعتهم في بعضها ــ وقد أبوا الى أنفسهم ــ لاحتاجوا في تفهمها الى مطاولة وجهد في الاستخبار ! ذلك بأنهم لم يصنعوا مثل ذلك الشعر صنعاً ، ولا جاءت روعته من التشمير في التجويد والافتنان ، ولكنه فيض يفاض على الشاعر .. » .

وهو كما ترى رأي فنان يصدر عن معاناة وتجربة ..

☐ **العبقري هو الذي يرتفع على قومه(١٢) :**

« من الجلي أن العبقري هو الذي يرتفع على مجموع قومه ، وأحياناً على أهل عصره في صفة أو في أكثر من صفة ، بحيث يتهيأ له أن يدرك في بعض الأمر مالا يدركون، ويشعر بما لا يتعلق لهم به حس ولا شعور .. » فهو « يسبق بتلك المواهب جمهرة قومه، ولقد يسبق أهل عصره ، اذ تهديه فطنته الى أشياء لم يفطنوا لها » .. و « لقد ينصب بعض هؤلاء العباقرة للعدول بالفن عن مذهبه ، وقد يقلبه رأساً على عقب ، وتلكم هي الثورة بعينها ... » .

☐ من أسرار الابداع الفني !(١٣) :

« العبقري المبتكر من العدم ، والمبدع على غير مثال ، قد لا يكون لتفكيره شيء مما صنع ، ولا لعقله دخل في شيء مما يبدع ٠ انما هو الطبع والغريزة ينضحان بهذا ، ولقد يفعلان في سر من عقله ، وفي غفلة من تقديره ٠٠٠ واني لأزعم لك ، أبلغ من هذا ، أن كثيراً من هؤلاء المبتدعين قل أن يشعروا بما صنعوا ،وقلّ أن يقدروا حق ما أبدعوا ٠٠ » ٠

☐ في حسن البيان وعلاقته بقوة روح الكاتب(١٤) :

« ان حسن البيان وجودة المقال لا ترجع في جميع الأحوال الى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه في أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ٠٠٠ بل ان ذلك ليرجع في بعض الأحوال الى **شدة نفس الكاتب وقوة روحه** ،فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنيّ بتقصّي منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان ، الاما تتقطع دونه علائق الأقلام ، ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكره ، تأبى الا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعاً » ٠

ويضرب لذلك مثلا بيان « جمال الدين الأفغاني » و « قاسم أمين » ٠ الأول غريب عن العربية ، والثاني شبه غريب عنها ٠ ويزيد بأن القارىء يعجب أشد العجب اذا عرف أن « حسين رشدي » ــ رئيس وزارة سابق ــ « كان رجلا قل أن تطّرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، قد كان أحياناً يرتفع بالعبارة الى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان ! » ٠

وهو رأي فيه من الغرابة بقدر ما فيه من صدق الواقع والتجربة ، ولو شئنا أن نضرب عليه مزيداً من الأمثلة وجدنا الكثير ٠ وغير بعيد عن هذا ما هو معروف عن الشعراء الكبار أنفسهم ، فقد تؤاتيهم « القريحة » فيندّون بالعجب العجاب ، وقد تخذلهم وتحرن دونهم فيرضون منها بسلامة الاياب ! ٠

قوة اللفظ من قوة المعنى نفسه(١٥) :

« لم يكن « شوقي » يكلف بالديباجة ،ولا يجهد في تسوية اللفظ وصقله ، ولكنه مع هذا قد يجيء بالعجب العاجب ! بل لقد استحدث شوقي في العربية صيغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ،وقوة الاشراق ٠ وأحسب أن قوة المعاني هي التي أرادته على هذا ودفعته اليه دفعاً » ٠

☐ رأي فريد في الفن والابداع(١٦) :

(المبتكر والصائغ الناظم يتساهمان الجدوى على الفن !) ٠

« ٠٠ المفتنّ الصنّع ، حتى الذي لم يؤت ملكة الابتكار ، ولم يرزق القوة على الانشاء ، ترى له من شدة الفطنة ودقة الحس ما يلتقط به المعنى الغريب ، ويشك به الفكرة الطريفة ، في شعر أو نثر ، أو موسيقى أو نحت أو تصوير ٠٠ فلا يزال به يحككه

بحسه المرهف، ويمخضه في ذوقه الرحب مخضاً. وكلما فعل ازداد في نفسه تبيناً ووضوحاً، وهكذا حتى يتمثل لها خلقاً سوياً، فسرعان ما يجلوه على الناس كما جلته عليه نفسه.. فلا يحسبونه مهما جُهد بهم من حدّ الذهن وترديد النظر الا خلقاً جديداً ... وكثيراً ما يعمد هذا الحاذق الصنع فيما يفطن اليه من هذه الدقائق الكامنة الى مطلها والبسط في خلقها بالتوليد والاشتقاق، وبتداعي المعاني، حتى يبلغ بها في ذلك غاية المدى، وأنت تحسبه كذلك مبتكراً منشئاً، وتظنه مستحدثاً مبدعاً .. » .

ويضرب مثلا على ذلك « الفنان المبدع » المغني « محمد عثمان » و « الصائغ الرائع » « عبده الحمولي » الذي كان يتلقف ألحان عثمان وأدواره ويسوّي صورتها، ويمرّه على ذوقه الدقيق تعديلا وتوليداً، حتى يخرجها أقوى وأبدع وأفتن، ثم يقال هذا الصوت لعثمان فيه لحن، ولعبده فيه لحن آخر ! » .

والنتيجة التي يريد أن يرسخها في ذهن القارىء هي أن كليهما ـ المبدع والصائغ ـ يتساهمان الجدوى على الفن .. « أما اذا لم يكن بدّ من فاضل فيهما ومفضول، فان أرجح الكفتين قد يكون لهؤلاء الصاغة الماهرين» !

☐ شاعر لفظ أم معنى ؟ :

وهذا رأي قد يبدو غريباً عند من يطلقون الحكم مبرماً قاطعاً لا يقبلون من بعده نقداً ولا مراجعة، فيصفون شوقي بشاعر الغناء ناسين أن له من الشعر ما لا يربطه بالغناء قربى أو سبب . ولكن هل هو في مقابل ذلك، شاعر معنى ؟ يقول(١٧) :

« وشوقي لا يحفل كثيراً بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديباجة، فان طبعه قد انصرف أكثره الى المعاني حتى ليحمّل اللفظ أحياناً ما يثقله ويبهظه ويكد ذهن القارىء في التماسه وتبيينه، بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتي أحياناً بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه الا بعد مراجعة وطول استخبار ! » .

ونحن نقول ان عبقرياً كشوقي لا تقبل عبقريته أحكاماً مجزأة كهذا الحكم، فمردّ العبقرية لا يكون الى معنى ولا الى لفظ، بل الى العبقرية نفسها .. العبقرية سر لا يدرك كنهه، فلا نهتكنّ سترها في محاولة القبض على سرها، جملة أو تفاريق، وهل كانت عظمتها الا في خفاء هذا السر ؟ ! ولو أن الكاتب ـ البشري ـ أحل كلمة « دائماً » محل « كثيراً » في قوله : « وشوقي لا يحفل كثيراً بنسج الكلام .. » لكان أوقع وأجمع، ولكان أكثر اتساقاً واتفاقاً وتتمة رأيه اذ قال :

« بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتي **أحياناً** بالغريب الشامس من اللفظ » . فمن يتصيد الشامس (أحياناً) ـ لا دائماً ـ لا يكون كل صيده شامساً، ومجرد استعمال « الشامس » لا يعني أنه طالب معنى، والا أساء الى المعنى نفسه، فما قيمة معنى لا يأتي الا على شموس ؟ ! فلنقل اذاً ان اللفظ قد يخونه أحياناً ـ وأكثر ما يكون ذلك في قافية، بمطوّلة، أو في معنى هو في ذاته فجّ غير نضيج ـ فيركبه هذا المركب

المضطرب . ونظرة ، مع هذا ، الى معظم شعره الغنائي وشعره المغنّى ، بل والى شعره التمثيلي ذاته - وبخاصة مجنون ليلى ومصرع كليوبترة - لكي ندرك مدى التجني على شوقي حين نقصي شعره عن فردوس الغناء و «موسيقية» اللفظ ! .

□ رأيان بلاغيان :

١ - قواعد البلاغة ليست شرطاً في الابداع الأدبي(١٨) :

« .. والعالم بالفن غير المفتن على كل حال ، وانما بينهما العموم والخصوص الوجهي على تعبير أصحاب المنطق ، فيجوز أن يكون المرء بليغاً وهو غير عالم بقواعد البلاغة ، ويجوز العكس كما يجوز أن يجمع بين الخلتين معاً » .

٢ - وجوب « تطوير » علوم البلاغة(١٩)

« لست ثائراً فادعو الى الغاء علوم البلاغة العربية بتاتاً ، كما الغتها أمم في الغرب بتاتاً ، ولكني أدعو الى تليينها وتمرينها ، حتى تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفطين والتذويق ، بحيث تتطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل تعليمها - في المدارس والمعاهد - بدرس الأدب نفسه ، فالواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدرس علوم البلاغة ، ولكن بطول ترديد النظر وتقليب الذهن في المأثور من روائع الآداب .. فاذا أبينا الا الحرص على بقاء هذه العلوم ، على تلكم الصورة التي دفعها الينا السابقون ، فلا شك في أن لها في دار الآثار العربية المكان الفسيح ! » .

وهو كما ترى رأي فنان فهم متذوق ، لا يحتاج الى أي شرح أو تعليق .

□ رأي طريف في الفرق بين الشاعر والعالم : (٢٠)

وانظر الى هذا التفريق بين الشاعر والعالم ، واحكم ما بدا لك ، ولكن لا تغمط الكاتب طرافة رأيه ! :

« كذلك تستطيع أن تفرّق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر في **الجملة معط** ، أما العالم في الجملة **فآخذ** : الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق والتلفيق بينها وافراغها في غير صورها وتلوينها بغير ألوانها . أما العالم فأبلغ جهده في تلقي الحقائق ، فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما انكشف له فيها من الآثار ، وما جُلي عليه من مكنون الأسرار » .

□ مميزات أسلوبه وفنه :

لم يكن أديبنا « البشري » مؤرخاً أديباً أولا ناقداً مختصاً أو « متمذهباً » ، وانما كان مؤرخاً للساعات والهنيهات الحلوة أو المرة التي تعبر في شريط حياته ، فتوحي له ما توحي ، وتؤثر ما تؤثر ، وتنعكس على « لوحة قرطاسه » صورة حسية أو دعابة عذبة أو تهكماً قارصاً غير وجيع ! وكان ناقداً ولكن بالمعنى الذاتي المزاجي لا المنهجي

الموضوعي ، ناقد حياة لا ناقد كلمات ٠٠٠فاذا تناولنا خصائصه ومميزاته فمن هذا الجانب ، جانب ذاتيته لا موضوعيته ،و « مزاجيته » لا منهجيته ، جانب « الأدب الخالص » الذي اصطلح على تسميته«بالأدب الانشائي » ٠ وبحسبنا ذاك فلم يكن هو ذاته ليطمع بأكثر منه ، ولنقنع بما قنع به وهو كثير ! وهل كان الأدب ـ في أصله ـ غير هذا ؟! ولكنا ألفنا أن نقدم الناقد والمؤرخ،ونغفل عن المبدع الذي وجد لأجله التاريخ والنقد ، وقام جرّاه الأخذ والرد ، ورحم الله القائل :

انام مـلء جفوني عـن شواردهـا ويسهـر الخلـق جرّاهـا ويختصم !

وانطلاقاً من هذا سنقصر كلامنا على وصفه ، وعلى أسلوبه عامة ، مع الوقوف قليلا عند سخريته ٠

☐ وصفـه :

يفرد الكاتب ، في « مختاره » باباً خاصاًبالوصف ، ولكن هذا الباب لا يستأثر وحده بوصفه ، فثمة « لوحات » ولمحات وصفية كثيرة تتناثر في أنحاء كتبه الأخرى ، ولا سيما كتابه « في المرآة » ٠

أبرز سمات هذا الوصف الطرافة والافتنان ، وامتزاجه بالدعابة والسخرية في كثير من مجالاته ، ولا سيما الشخصية ٠ وهو في معظمه حسّي تأخذه **الدقة** من أطرافه اذ يكون الجد طابعه ومنحاه ، ويغرق في **التضخيم** و « **المط** » الكاريكاتوريين في سانحة من سوانح هزله ومرحه ومزاحه ٠ واليك نماذج من لوحاته ولمحاته الوصفية هذه كافية ، في زعمنا ، لاطلاعك على براعته في هذا الميدان وافتنانه فيه ، من غير حاجة الى وسيط بينك وبينه أو دخيل ! ونسمح لأنفسنا أن نبدأ بهذه الصورة « الوسيمة » لصديقه وصفيّه « حافظ ابراهيم » ، جلتها ريشة شيطانة هذا الجلاء العجيب ، فلا تدري ماذا تنفض لك ريشته من خطوط طافرة وألوان نافرة ،لا تملك معها الا أن تعرض وتشيح ، ناشداً لنفسك السلامة ٠ ولكن « البشري » يأبى عليه « عفريت » قلمه الا أن يمهد لصورته « الوسيمة » هذه بنكتة « حافظية » يتخذها تكأة للانقضاض عليه بنكتة « بشرية » تكون جزاء له من جنس عمله ، فيقول(٢١) :

« حافظ ابراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعي على أهله ٠٠ وما ان طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوي معارف الوجه الا قال له : يا فتى ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤدمهراً ! ويعقّب « البشري » قائلا : واذا اطّردت نظرية « حافظ » فلا شك في أن المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية ، فلم « يدفع » مهراً بل هو الذي أخذ « الدوطة » » !

وما يلبث بعد انقضاضه الصاعق على صاحبه وصفيّه ، أن يبدأ بجلاء طلعته بهذه الصورة « البهية » :

« جهم الصوت ، جهم الخَلق ، جهم الجسم ، كأنما قدّ من صخرة في فلاة موحشة، ثم ذكّر في آخر ساعة في أن يكون انساناًفكانو « السلام » !

ثم يأتي دور الازميل ، فينقش لنا هذاالشكل « الجميل » :

« أما ما يُدعى فمه فكأنما شُق بعدالخلقشقاً ، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقاً . وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ،فكأنماعُهد به الى « نقاش » مبتدىء تشابهتعليه الأصباغ والألوان، فداف أصفرها فيأخضرهافي أبيضها في « بنفسجها » . فخرج مزجاً من هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ... ».

وتمضي عملية التمثيل والتشويه لتوفيعلى الغاية فيقول (وامسك نفسك) :

« وانك لو نضوت عنه ثيابه وألبستهدرّاعة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبّة ضافية ، وتوجته بعمامة عظيمةمتخالفة الطيات ، لخلته من فورك دهقاناً من دهاقين الفرس الأقدمين ! فاذا جرّدته كلّهوأطلقته في البر حسبته فيلا ، أو أرسلته في البحر ظننته درفيلاً ! » .

وبعد أن يفرغ من « عمليته الآدمية » هذه يعود اليه يهدهده على حرير ناعم وعطر فاغم ، لتحلو صورته في نفسك بعد أن اجتواهاقلبك ، واستعاذ منها لبّك ، فيقول معوّضاً اياه في روحه وظله ، عما استباح من منظرهوشكله :

« خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة .. وهو أجود من الريح المرسلة.. »

ثم يخاطبه مسترضياً :

« وبعد فاذا كنت يا صديقي قد وترتك بعض حقك، ولم أعرض جميع مزاياك ،فلكيلا أجعل لأحد سبيلا الى الاتهام ... » .

وهذه صورة حسية أخرى ، « جاحظية »يصف بها جسماً آدمياً آخر ، يبدو أنه كان ــ هو الآخر ــ معدوداً في جملة « هواياته»(٢٢)

« .. ان عينك لا تكاد تسقط عليه حتىتشعر بما بين خلقه وبين (قيافته) من سوء التفاهم .. ولو تمثلته وقد بعد ما بينكتفيه،وتقارب ما بين كشحيه ، وما يزال يتقارب في منازله الى مستدق حذاءيه ، لرأيت منهمخروطاًمعكوساً ، أو على الأصح قمعاً مكفوءاً ! » .

وهذه صورة أخرى تذكرك بالجاحظوصوره « الهندسية » البارعة ، يصوّر فيها « زيور باشا » ــ من سياسيي مصرالسابقين ــ(٢٣) :

« أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسيةورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية ، فذلك كله يُحتاج في وصفه وضبط مساحاته الى فندقيقوهندسة بارعة . والواقع أن « زيور باشا » رجل ــ اذا صح هذا التعبير ــ يمتاز عنسائرالناس في كل شيء ، ولست أعني بامتيازه في

شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بُعد مداه ،فان في الناس من هم أبدن منــه وأبعــد طولا وأوفر لحماً ، الا أن لكل منهم هيكلا واحدا • أما صاحبنا فاذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنــه مؤلف مــن عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تعلّق بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنهــــا ما يدور حول نفسه ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر ، وفيها المسترخي المترهل • وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها الى الأمام شعبة طويلة أطل مــن فوقها على الوادي رأس فيه عينان زائغتان ، طلّة من يرتقب السقوط الى قرارة ذلك المهوى السحيق ! » •

•• وبعد أن يعرض ما أحصي على صاحبه هذا من أمور مستنكرة في حــق القضيــة الوطنية ، وما أخذ عليه مــن سفه في أموال الدولة واستهتار بمصالحها ••• يخلص الى هذا الحكم الطريف :

« ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هــو مخ « زيور باشا » ، فما أحسبه شارك ولا دخل ، في شيء من كل ما حصل ! » •

وهذا نموذج آخر مــن تصويره لا يقوم على الوصف الحسي ، بل ينصرف الى أخــلاق « نماذجه » وطباعهم ، يصف لنا فيه بخيلا من أعجب بخلاء العصر ، ولكن ليس فيه ظرف من عرفنا من « بخلاء » الجاحظ(١٤) :

« ••• وأما الثياب فلا يكفي لتغييرها أن تحول ، أو يلحقهــا النصول ، أو أن تبلى خيوطها ، أو أن تتخرّق عروضها ، فهو لا يتركها بل هي التي تتركه حين يدركها الفناء ، فتطاير عنه تطاير الهباء » •

وهذا نموذج آخر من « بخلائه »(٢٥) :

« •• كان يخالف سنة البخــلاء في خلّة واحدة : ذلك بأنهم ، كما تعرف ، يقتّرون على أولادهم وعلى أنفسهم معاً ، ولكن هــذا انما كان تقتيره موجهاً على عيالــه وحدهم • أما نفسه فكأن لا يحقن فيها شهوة ، وبخاصة شهوة الطعام ، بل لقد كان يبلغها مــن هــذا غاية مناها ! • •

•• وأما العشاء ، فله فيه صنع بديع ! يدخل وقت العشاء فاذا صاحبنا قد سلف وأعد بعدد الأولاد « ملاليم » ، فاذا اجتمعوا اليــه مستشرفين لعشائهم قال لهم : « اللي ياخد مليم ما يتعشاش ، واللي يتعشى ما ياخدش مليم ! مين اللي ياخد مليم ؟ ويدفع أحدهم فيقول : (أنا !) وعلى حكم غريزة التقليد في الغلمان ، يسرعون فيتصايحون : (أنا ! أنا ! أنا !) ، فيدفع الى كل منهم مليمه ، وكفاه الله مؤونة العشاء ، أعني عشاء الأطفال !) •

« وبعد فللفطور قصة أخرى : ذلك بأنه زعم للزيات القائم علــى رأس الشارع ، أن لديه حملا يربيه ويحب أن يسمنه ، ويجزل لحمه وشحمه ، وليس يعقد لــه ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصة(٢٦) (تصافي) قدر العصر ، ويبعث اليه بها في الصباح الباكر ، والأولاد

نيام ، فيفرغها في صحفة كبيرة ، ويعالجهـا بقدر من الخل ، ويصفف حولهـا كسر الخبز التي أفضلها الأولاد في غداء أمسهم . حتى اذا هبوا من النوم ، وأحشاؤهم تتنزى من شدة الجوع ، فتواثبوا الى الطعام ، صاح فيهم: (اللي عاوز يفطر يجيب المليم !) فلا يسع كلا منهم الا أن يطرحه اليه ، مواتاة لالحاح البطن ، وايثاراً للعافية ، فسرعان ما تعودتلك الملاليم الى عشها ، وتعتصم بوكرها ! » .

أما يوم موت هذا البخيل « الفذ » فكان يوماً مشهوداً :

« وفي يوم موته ، رحمه الله ، لم ينتظر هؤلاء الأولاد حتى يقسموا التركة ، ويهتدوا الى اسم المصرف الذي يكنز فيه (المرحوم) ماله ، بل لقد كنت ترى أحدهم يهرول في الطريق وعلى رأسه (شبّاك) ، والثاني وعلى كتفه مصراع باب، وثالثاً يحمل بين يديه طستاً، ورابعاً يحمل مقطفاً ملىء بالصنابير (الحنفيات) وهكذا ! ... » .

ومثل هذا عنده كثير ، وكله يدل على مبلغ ما يتمتع به كاتبنا من قدرة فائقة على التصوير قلّ أن يجود بمثلها الدهر ، وقد سقنا بعض نماذجها ، وللقارىء أن يقع على الكثير من أمثالها في تضاعيف كتبه .

□ سخريته ونكاتـــه :

سخرية الكاتب ودعابته لا تنفصلان عن وصفـه وتصويره . وفي « النماذج » القليلة التي سقناها أمثلة بينة على ذاك ، وفيها قدر كفاية . ولكن لدى الكاتب جانباً اخر من جوانب السخرية اشتهر به ، يتصل بحياته المادية بين الناس ، ومعايشته لهم ، وهو جانب « النكتة » ، وهو يؤلف قاسماً مشتركاً بين شخصيته وأدبه . ففضلا عما فيه من دلالة على شخصيته وحلو مفاكهته ، فان فيه أيضاً أبلغ الدليل على رهافة حسه ورقة طبعه ، وهي صفات لاتلازم غالباً الا الأصلاء المتميزين بأدبهم وفنهم ، يصدق ذلك على قدمائهم ومحدثيهم ، وهم كثير ، منهم على سبيل المثال الأعشى والحطيئة ، في الجاهلية ، ومنهم الفرزدق وجرير ، في العصر الأموي ، ثم بشار وابن الرومي والمتنبي والجاحظ والمعري وغيرهم .. وكلهم فحول أفذاذ، ترتبط حياتهم بفنهم وأدبهم أقوى ارتباط وأوثقه ، ولن نفيض في الكلام على هذا الجانب عند أديبنا « البشري » وسنكتفي بعرض بعض من هذه النكات التي تزيد في جلاء صورته وكشف طبيعته ومزاجه . منها ، وهي مصوغة بقلمه، بعنوان (في الخدمة !) :

« لقيني اليوم في الترام لحّاد (تربيّ) مشهور أعرفـه ، فسلّم وسلّمت ، وأقبلت عليه أحييه ، بما جرت به عادة الناس ،وأسأله عن شأنه ، فقال لي يرد التحية في لهجة تشف عن الصدق والاخلاص : (احنا في الخدمة !)، فقلت له : الله يحفظك! فأجاب من فوره كذلك في اخلاص ولهفة: (ربنا لا يحرمنا منك !)».

وأخرى بعنوان :

أعـوذ بالله !

« على طريقــي الى الدار (حانــوت) والعياذ بالله تعالى ، نُضدت فيه خشبُ الموتى ودكك الغسل تنضيداً بديعاً ·· ويجلس على بابه كل يوم من الصباح الباكر عماله الكرام، من (غاسلين) وحمالــين ، ومنشدين ··)وهم يتوسمون وجه كل غاد ورائح ، لعل القدر يسعدهم بمرزوء(٢٧) في أحد بنيه ، أو في أمــه أو في أبيه ·

وجزت بهم مصبح يوم وعيناي تنضحان بالدمع من أثر الرمد ، فأتلعوا الي أعناقهم ، ورأيت البشر يشيع في وجوههم ، وسرعان ماتحركوا جذلــين للقائي ، وهم يدعون الله في أنفسهم أن يجعل (استفتاحي لبن !) ،فصحت فيهم : استريحوا يا أولاد ال ··· ، فما بي والله بكاء ، ولكنه الرمد ، وكلنــا ولله الحمد بخير وعافية ، وقطع الله أرزاقكم ، ولا أدخل النعمة عليكم أبداً ··· ! » ·

وهذه ثالثة بعنوان :

« مفتش عموم ···· ! »

« اعترضني اليوم في مقفلي من الديوان شاب أنيق الملبس ، لعلـه طـالب في احـدى المدارس العالية ، أو في السنين الأخيرة مــن التعليم الثانــوي ، وقال لي : (يا عم) كم الساعــة الآن ؟ فطالعت ساعتي وقلت لـه :الساعة ٢ وسبع دقائق ، فحسر كمه فانكشف عن ساعة ذهبية ، ونظر فيها وقال : لا ! لا ! ساعتك مؤخرة أربــع دقائق ! ثم خلّى بيني وبين الطريق ، وانطلق لطيته ! وبعد أن أجلت ظني في شأنه أدركت انه ربما كان···«مفتش عموم الساعات » !

☐ مميزات أسلوبه :

للكاتب أسلوبه الذي يدل عليه ، وهذه أولى ميزات هذا الاسلوب ، ولعلها أهمهــا · وهو أسلوب تفرد به حتى عدّ ــ كما شهد له بذلك طه حسين ــ « مدرسة وحده » في جيله ، ووصفه بالكاتب العظيم حين قال : ان المثقفين« ليسوا من الجحود والعقوق بحيث يقصرون في ذات كاتب عظيم كهــذا الكاتب العظيم ·وعنده أن أسلوبه« أرفع وأعسر وأشدا ستعصاء من أن يتعلق به المتأثرون والمقلدون ·· » ·هو اذاً في أسلوبه ، غير مقلد فلا مجال لالحاقه ــ كما أسلفنا في القسم الأول من هذا المقالــب (المدرسة التقليدية) ، ولا هو مقلَّد ، فلم يتعلق به أحد كما قال طه حسين ، ولم يحاول تقليده أحد · وقد رأينا مع ذلك أنه أقرب ــ بأسلوبه خاصة ــ من مدرسة المحافظين ،فهو في جزالته وقوة أسره وتقبُّله العبارات البدوية التي تبدو أحياناً وكأنها قدّت من صخر ،أقرب الى هذه المدرسة والصق بأصحابها وحامليــ رايتهــا ·

وللكاتب ، مع ذلك ، تعابير فريدة خصّها وخصت به ، تدل على حيوية أسلوبــه ، وحرصه على تصيد الكلمات الحية المعبرة ·وزاد على ذلك فاعترف بأنه يسف أحياناً الى « العامية الشائهة » اذا اقتضاه المقام ذلك ،يقول(٢٨) :

« ولعلك آخذي بأنني أسف- أحياناً الى العامية الشائعة ، فأوردهـا في درج الكلام ، وعذري في ذلك ما تعرف من اننا نكتب بلغة ، ونتناول أسبابنا الدائرة بلغة اخرى ، وهيهات لك ان تجلّي على القارىء صورة كاملة من حديث قوم في مناقلاتهم ومنادراتهم ، وما تطارحوا من فنون النكات ، الا بان توررده كما نطقوا به ، وبخاصة اذا كان يجري في التعبيرات التي تشيع على ألسنة الناس ، وتذهب عندهم مذهب الأمثال ، فاذا حاولت ان تؤدي هـذا بفصيح اللغة فسد الغرض واختل نظم الكلام . وللامام الجاحظ في هـذا المعنى قول جليل فراجعه ان شئت في كتابه (البخلاء) » .

وهو رأي ـ كما ترى ـ يدل على روح تجديدي واضح ان لم يسلكه في عداد المجددين فهو لا يسيغ جعله في منأى عنهم ، بل لا يمنع من عقد صلة من صلات القرابة معهم ! .

ويقول موجهاً الكلام الى الاساتذة علاّم سلامة ، ومصطفى صادق الرافعي ، وصادق عنبر ، واضرابهم من أصحاب اللغة والمتشددين فيها (٢٩) :

« اذا أبيتم ألا يتندر الناس الا بالفصيح فعليكم أولا بتحفيظ الأمة كلها « المعلقات السبع » والملحمات السبع ، والمذهبات السبع ، والمنتقيات السبع الخ . . الى استظهار « الكامل » للمبرد ، و « الأمالي » للقالي ، و « صحاح الجوهـري » ، و « مخصص ابن سيـده » ، والأساس للزمخشري الخ الخ ! . وانا زعيم بأن النـاس لن يعودوا يسمعـون في أعراس (أولاد البلد) في حلل الغناء في (قافية أسماء الشوارع) مثلا : اللي على جتتك ! اشمعنى؟ الضرب لحمر ! . . . بل سيسمعون بدلها انشاء الله : هذا البادي على جثمانك ! ما باله؟ . من أثر المشق بالسياط !.. »

وواضح من هذا الكلام حرص الكاتب على أن يظهر أمام قرائه بمظهر المجدد غير المتشدد ، فهو يقول مثلا تحت عنوان (غواة) :

« فاذا أباها علينا صديقنا الأستاذ « صادق عنبر » قلنا (هواة) ، وأمرنا لله » .

بل لقد يترخص الى درجة الوقوع في الخطأ اللغوي أحياناً فيقول : « يكلف صاحب (المهم) الفرّاش باحضار « طقم » الشعـراء » . . . والصحيح « احضار » .

على أن له كما أسلفت ألفاظاً وتعابير فريدة ، في أكثرها حيويـة قل أن تجد لهـا مثيلا عند كتّاب عصره ، من مثـل قولـه في وصف جسيم :

« فاذا دنا منك سمعت له **زحيراً** من كثرة اكتناز الشحم » .

وقوله في السيارات :

.. « كان مهمتها في هذا البلد **صنـع** أرامل **وتخريج** أيتام » .

وقولـه :

« لا تراه الا طرباً طرب العقاد » (٣٠) حين **يسيل** في (تقاسيمه) » .

وقولـــه :

« متحفظ دونك ما **تتفصد** نفسه مـــن الرأي بكثير ولا قليل » .

وقولـــه :

« الموظف الذي **ينكسر** همـه على طلب كُسى الحجّاب والسعاة » .

وبعد فهذا كاتب دخل الى دنيا الأدب من غير دويّ ، وغادرها من غير دوي .. ونامت أكثر الأعين والأسماع عنه نومها الهادىء العميق! .. ولكنه لم يمض عن أحبابه ومقدريه مضي الشهاب لا وقع ولا أثر ، بل كان النجم الذي يظل يلمع ويضيء ، ويزداد على الدهر تألقاً والتماعاً .

* * *

الحواشـي :

١ ـ اعلام الأدب والفن (٤٦٢/٢) .

٢ ـ « المختار » ـ للبشري ـ مقدمة الجزء ٢ (ص ٨) .

٣ ـ اعلام الأدب والفن (٤٦٢/٢) .

٤ ـ من محاضرة له (١٩٣٣) نشرت في « الأهرام » والسياسة » .

٥ ـ المرجع نفسه .

٦ ـ « المختار » (٣٢/١) .

٧ ـ المختار (٢٥/١) ـ (٧ مكرر) المختار (٦٢/٢) .

٨ ـ المختار (٦٧/٢) .

٩ ـ المختار (١٠٩/١) .

١٠ ـ المختار (١٠٨/١) .

١١ ـ المختار (١٠٢/١) .

١٢ ـ المختار (٦٥/٢) .

١٣ ـ المختار (٤١/٢) .

١٤ ـ المختار (١٢/١) .

١٥ ـ المختار (١١٦/١) .

١٦ ـ المختار (٤٢/٢) .

١٧ ـ في المرآة (١٧٣) .

١٨ ـ المختار (٣٥/٢) .

١٩ ـ المختار (٣٩/٢) .

٢٠ ـ المختار (١٠٨/١) .

٢١ ـ في المرآة (١١٤) .

٢٢ ـ في المرآة (١٠٧) .

٢٣ ـ في المرآة (٧) .

٢٤ ـ (١٩٦/٢) .

٢٥ ـ (٢٠٢/٢) .

٢٦ ـ الخلاصة : ما بقي في القدر من تفل او لبن او غيره .

٢٧ ـ مرزوء : مصاب .

٢٨ ـ « في المرآة » ح ـ المقدمة .

٢٩ ـ في المرآة (٨٤) .

٣٠ ـ من عباقرة الموسيقيين ، وعازف مشهور على « القانون » .

من النجوم الغوارب

القاضي محمد أديب الاهدلي

د. وفيق نعساني

ارتحل الى جوار ربه العالم العامل القاضي محمد اهدلي اليماني في ربيع الآخر الموافق ٢٧ أيار ١٩٧٢ عن عمر يناهز ٧٨ عامة ، حافل بالأعمال الجليلة والجهاد المتواصل في سبيل الله .

□ اسمه وكنيته ولقبه ونسبه :

هو محمد أديب بن عزى بن حسن بن القادري بن عمر بن القاسم بن محمد بن الطاهر ابن محمد الثاني ، وهو سليل علي الأهدل الكبير الذي يتصل نسبه بالحسين بن علي رضي الله عنهما ، ومنه جاءت كنيته الأهدلي ويدعى أبا الأهدلي .

أما أمه فهي خديجة بنت الحاج لطوف بن نجيب البصمجي من حلب .

□ موطنه الأصلي ومسكنه الجديد :

موطنه الأصلي هو اليمن حيث هاجر أحد أجداده وهو محمد بن سليمان ، الذي يعود بنسبه الى جعفر الصادق ، من العراق الى المرواعة بوادي سهام من أعمال الحديدة في اليمن ، فولد له عمر ، ثم ولد لعمر علي الأهدل الذي تفرعت منه أغصان الأسرة الأهدلية .

وقد انتقل أحد فروع الأسرة وهو محمد السادس الى قرية الشغر القديم التابعة لقضاء جسر الشغور سنة ١٨٤٧ م حيث استقر به المطاف هناك ، وعندما توفي عام ١٨٧٨ م قدم ابن أخيه محمد عزى (والد القاضي المرحوم) في عام ١٨٨٠ م من اليمن الى الشغر بصفته الوريث الشرعي الوحيد لعمه ، لأنه مات بدون عقب ، وقد خلف له زاوية ومكتبة ، فأقام في الشغر ثم عين مفتياً لقضاء جسر الشغور حتى وفاته قبيل عام ١٩١٨ م حيث خلفه ابنه (المترجم له) في عمله .

▢ موجز عن تاريخ حياته العلمية والعملية :

ولد المرحوم عام ١٣١٢ هـ الموافق لـ ١٨٩٤ م في قرية الشغر القديم ، وفيها ختم القرآن وجوّده وتعلم الكتابة ، ثم انتقل الى المدرسة الرشيدية في قصبة الجسر ، فتلقن جوهر الدين وقويم الأخلاق فيها ، ثم انصرف لطلب العلم الديني حسب رغبة والده فرحل الى أريحا وادلب واللاذقية وحلب وأخيراً الى مصر حيث دخل جامعة الأزهر وحظي بعناية المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وبعد قضاء /٤/ سنوات في الأزهر الشريف عاد ليعين في مدرسة ذكور الجسر الابتدائية ٠

وعند اعلان النفير العام انخرط في سلك الجندية متطوعاً لشعوره بوجوب الجهاد ، فانتسب الى رهط البرق (التلغراف) ثم تحول الى قلم الفرقة ٢٣ ، وعندما علم بوفاة والده ، عاد الى الجسر ليؤدي امتحان مشيخة التكية ثم ليعين بعدها مأموراً للزراعة ، ثم كاتباً ثانياً للأعشار ، وبقي في عمله هذا حتى نهاية الحرب العظمى ، حيث انتخب في عام ١٩١٨ م مفتياً لقضاء جسر الشغور مكان والده مضافاً الى ذلك وكالة القاضي ورياسة البداية ٠

وفي آيار ١٩٢٥ م أنفذته حكومة الانتداب الى حلب حيث أجبر على الاقامة منفياً فيها حوالي /١٩/ شهراً ثم عين في كانون الأول ١٩٢٦ م مفتياً لجرابلس ثم أضيفت الى الافتاء وظيفة التدريس لقضاء جرابلس ، وفي تموز ١٩٢٨ م عين قاضياً شرعياً لقضائي اعزاز وكرد ضاغ درجة رابعة ثم تحول قاضياً لقضائي جرابلس ومنبج عام ١٩٣١ م ونقل في عام ١٩٣٢ م قاضياً بقضائي الباب ومنبج ، وفي عام ١٩٣٣ م عين حاكماً لصلح قضاء حارم ، فقاضياً شرعياً لمدينة حلب حيث ترقى فيها للصنف الثاني ، وفي عام ١٩٣٨ تسلم مديرية أوقاف حلب ، وفي عام ١٩٣٩ م نقل قاضياً شرعياً لحمص درجة ثانية ثم رقي الى الدرجة الأولى وبقي في منصبه هناك حتى عام ١٩٤٨ م حيث نقل الى اللاذقية وهناك أحيل على التقاعد عام ١٩٤٩ م ٠ وقد حصل أيضاً على دبلوم كلية الصحافة في القاهرة ٠

وقد عمل كاتباً للعدل فيما بين ١٩٥١ م ـ ١٩٥٩ م ، ثم عمل محامياً فيما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٦ م وتفرغ بعد ذلك للعناية بتربية وتوجيه أولاده الى أن فارق الحياة وهو في دمشق فنقل الى الشغر حيث دفن هناك ، وكانت حصيلة تربيته وتوجيهه أولاده بالاضافة الى مئات الشباب الذين تولاهم بالتوجيه والرعاية في كل من الجسر وحلب ودمشق وحمص واللاذقية ، ولم يكن نصيبهم من عنايته بأقل من نصيب أولاده ٠

▢ أضواء على شخصيته :

من هذا العرض السريع لمراحل حياته نصل الى دلالتين هامتين :

١ ـ نشاطه الدائب ، وسعيه المتواصل ، وحبه للعمل ، وتفانيه فيه ٠

٢ ـ مناوأته للظالمين ومعاداته للانتهازيين ، ووقوفه في وجه حركات التتريك ، ومناضلته للفرنسيين ، مما جر عليه نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها أيضاً فعملوا على نقله من

مكان لآخر ، وتعرض للاهانة والنفي والسجن وللحكم بالاعدام أيضاً ، دون أن يفل ذلك من عزمه أو يوهن من قوته أو يغير مواقفه ·

والخلاصة أن فضيلة الأستاذ محمد الأهدلي قاضي الشرع الحنيف أديب كبير من أدباء العرب وعالم من علماء الاسلام ، فهو عصري النزعة وحديث الطلعة ·

يحب من الاسلام تعاليمه القويمة ومبادئه السليمة ويأبى الا الاعتراف بفضل الدين على المجتمع · وانما هو الدين الذي يقوم على الأخلاق والفضيلة والصدق والعدل والمساواة وينظر الى الدين بمنظار التجدد والارتقاء والتطور وهو في مقدمة من يشعرون بشعور الأمة فيحزنون لحزنها ويفرحون لفرحها ، فاذاما نفث كربته بمقال فانما يكون قد ردد صدى ما تجيش به الصدور وتنطوي عليه النفوس ·

وقد نوّه بذلك شاعرهم قائلا من قصيدة:

ولما ابتلاك الفرنسيس قلت	هلموا بني الجسر فالموت طابا
فما خذلتك الجموع ولا أسلمتك	الضلوع كي تتلقى الحرابا
غداة خُطِفت من المسجد الطُهر	خطفاً وساقوك فرداً مُهابا
لكي يقتلوك على ضفة النهر	والنهر يغلي حصاً وحبابا
كما خطفوك خطفنا الرئيس	وقلنا : دمٌ بدمٍ ان أردتم حسابا

ويؤيد ما ذهبنا اليه مواقفه الحازمة من الأمور الجسيمة التي تعرض لها ، نذكر منها :

□ مناضلته الاستعمار :

عندما عين في منصب الافتاء في جسر الشغور قام بتشكيل فرقة مسلحة تضم /٨/ آلاف رجل لمناهضة سياسة التتريك ، التي قادتها جماعة (الدونمة) : يهود سالونيك وعندما دخلت فرنسة الى سورية قاد الثوار السوريين في منطقة الجسر ، وتعاون مع ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي وكان على رأس ثوار جبل الزاوية في كفاح المستعمرين الفرنسيين ·

كل ذلك مما سبب نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها عليه · فاعتقل عام ١٩٢٥ م باختطافه من جامع الجسر ونقله الى السجن ،ثم حكم عليه بالاعدام ، وكاد الحكم ينفذ لولا ثورة أهالي الجسر واعتقالهم للمستشار الفرنسي حيث افتدوا به زعيمهم الأهدلي ، وهذه الحادثة كافية للدلالة على مدى حب الشعب له وتعلق قلوبهم به ، وبالمقابل تدل على تفاني الشيخ المرحوم واخلاصه وتضحيته في سبيل مصلحة أمته ·

وبالاضافة الى نفيه الى حلب ــ كما ذكرنا سابقاً ــ فانه قد حجز في دمشق أيام الانتداب الفرنسي مدة /٧/ أيام حيث استجوب كالمجرمين ·

ولكن كل هذه المحاولات لم تفل من صلابة الرجل المؤمن ، ولم تعرف شخصيته انفصاماً بين الفكر والسلوك ، فاستمر في كل النشاطات السلبية والايجابية ضد فرنسة المستعمرة ٠

اصلاحاته الدينية والاجتماعية :

لقد كان رحمه الله حرباً على التخلف والتسلط ، ولم تلن عريكته أبداً مما أدى الى اتهامه بالخروج والمروق من الدين ٠

وعندما عين مديراً لأوقاف حلب نهض بالمشاريع الآتية :

١ ـ قام باصلاح ديني واسع سار فيه حثيثاً بقوة العقيدة وحرارة الايمان مما عرضه لمحاولة الاغتيال من جانب أعداء الدين والانسانية الذين يرون في الاصلاح دمارهم ٠

٢ ـ قام باصلاحات ادارية جمة كانتقاء المؤذن الصالح والامام الورع والخطيب البليغ ، بالاضافة الى سهره على أموال الأوقاف وكف الأيدي الأثيمة عن سرقتها ، وأشهر اصلاحاته في هذا المجال الغاؤه راتب تكيته في الشغر ٠ قبل أن يلغي راتب أية تكية أخرى ، وانزال راتبه المعين في المرسوم الجمهوري من /٤٠/ ليرة دينارية الى /٣٠/ ليرة دينارية رغبة في التوفير ٠

٣ ـ حاول انشاء جامعة دينية تضاهي الجامع الأزهر والجامعات الاسلامية الأخرى رغم ضعف امكانيات أوقاف حلب عهدئذ ٠

٤ ـ قام بنشاط صحفي واسع خاصة في حمص واللاذقية ، فدبجت يراعته المقالات المختلفة من سياسية واجتماعية وأدبية ودينية مما كان له أكبر الأثر في نفوس الجماهير ، وما يزال الجمهور يردد هذه المقالات الجريئة التي تنص على حرب التخلف والاستعمار والصهيونية وتنادى بالاصلاح الديني ٠

هذا بالاضافة الى نشاطه في عمله حيث تقلب بين التدريس والافتاء والقضاء فترة طويلة ، فقدم للاسلام والمسلمين خدمات جليلة ، ناهيك عن الشباب الذين أحاطهم برعايته في مختلف المناطق ٠

آراء علماء عصره وفضلائه فيه :

لقد كان رحمه الله بحق شخصية اسلامية فذة ، تذكرنا بالسلف الصالح علماً وعملاً ، تقوى وورعاً ، حزماً وعزماً ، وقد شهد له بهذه الخصال وبغيرها من الخلال النبيلة العديد من العلماء ورجالات عصره ، وخاصة في معرض حديثهم عن أحد مؤلفاته (القول الأعدل في تراجم بني الأهدل) وهاكم بعض هذه المقالات في تقريظ المؤلف رحمه الله :

من حمص تحدث المحامي نديم الموصلي قائلا :

عرفتك قاضياً فاضلا ، وعالماً عاملا ، ومصلحاً ٠

لا تأخذه في الحق لومة لائم · أقـول هذالا زلفـى اليـك ولا حاجـة لديـك · ولكـن الاعتراف بالفضل وأهله هـو الذي أملى علىقلمي ما يعتلج في صدري من عاصفة التقدير ، وأتمنى أن يكثر في العرب عامة وطبقة العلماءخاصة مثلك في الخلق ·

وتحدث الأستاذ روحي الفيصل منوهاً :

استطاع أن يقص بقلم الأديب البـارعوثقافة العالم الضليع آراء" سمحة ، فيها مـن الروح العصرية في فهم الدين استقاها فضيلةالأهدلي من روح الأزهر الشـريف الذي درس معه ومصاحبة الرافعي الذي اتصل به ورعاه ·

كما أشاد الأستاذ أديب الساعاتي بصراحة :

أرجو أن يطالعنا بكل جديد فيه من صراحة الأهدلي وجرأتـه ما يصلـح المعـوج" من أخلاقنا ويقوّم الفاسد من عاداتنا وعقائدنا ·

وتكلم الأستاذ نديم الوفائي عن مزاياه :

تلك الزهرة الفواحة ، فضيلـة السـيدمحمد أديب الأهدل .. المفتي ، رئيس المحكمة ، حاكم الصلـح ، القاضي ، مـدير الأوقـافالعربي ، الوطني ، المنفي ، المبعد ، السجين ، العامل ، الأمين ، أضاف كل هذه الألقاب الىاسمه وحملها بكل أمانة وكفاية واخلاص ·

الفتاوى وسجلات المحاكم وبطـون دفاترالأوقاف ومواطن الشرف ومراقي النبل كلهـا تعرف أمانته وكفايته واخلاصه ·

ومن أبناء جسر الشغور وافى الدكتورسليمان جرجس شكور بخلجة الضمير هذه :

خلجة ضمير ·· على من ربى فينا نبـلالخلق ، واستقامة السيرة ، وترك مدرسة نحن من روادها الأوائل هذه المدرسـة التي كانتولا تزال وستبقى أبـداً تشـير الى مؤسسهـا (أبي الأهدلي) الذي قال الحق ودافع عنه يومكان قول الحق ظهيره الحديد والنـار · هـذه المدرسة التي من أول أخلاقيتها قول الحـق فيحضرة حاكم ظـالم ، من أخلاقيتهـا الوفـاء للصديق ، من أخلاقيتها التفكير الحر ·

ان كنت سأسطر هنا كل ما يدور في خلديفيلزمني الألوف من الصفحات ، ولكن يكفي أن أقول ان رجلا رصيده الضخم هو في ذمة الأجيالرجل يقرع التاريخ بكلتا يديه ·

سيظل في ذكراي صورة متجـددة من أبرحيم وصـديق وفيّ ، وموجه مخلص شـريف ما حييت أنا وأجيالي ·

ومن حمص أيضاً يقول الأستاذ وصفي الجندي زميل المرحوم في الجندية :

الجنـدية تلك هي التي عرفتني المـؤلفحفظه الله ــ وعرفتني ما تضم تلك الشخصية النبيلة في أطواء الصدر من أخلاقه الفاضلة ،والثقة بالنفس ، والصبر على الأذى واحتمال المكـاره ···

ويتابع وصفي الجندي حديثه قائلا :

قال لي يوماً أركان حرب فرقتنا : لقد أسديت الينا يداً لا تنسى باختيارك السيد محمد الأهدلي للقلم ٠٠٠ لم يمض على وجوده سوى بضعة أيام حتى أصبح مضرب المثل بين عموم أفراد الفرقة على اختلاف مراكزهم فيها : عفة وأمانة واستقامة وأخلاقاً وديناً ٠٠٠ انساني برحابة صدره وكريم سجاياه وعظيم أخلاقه ٠

كل هذه الخصائص من عنوان الشباب ،وحزم الرجال ، ورزانة الشيوخ ، وتجتمع معاً لتكون الشخصية الفريدة ، شخصية المرحوم القاضي الأهدلي عليه رضوان الله ، وهذا ما دفع الشاعر رفيق الفاخوري ليقول :

طوق الأهدلي حمص بيمناه ... وأحيا بفضله الآمالا
أي دار أرادها ما تهادت ؟ ... أي صقع قد زاره ما اختالا ؟
منطق ساحر ، فان حزب الأمر ... تخلى عن طبعه واستحالا
وقضاء يدني الضعيف ويضني ... من تجافى عن الصراط ومالا
واجتهاد يستلهم الحق صرفاً ... ليس يلقي الى الأباطيل بالا

حقاً كان الأهدلي شخصية فريدة في عصره ، من سمع به أحبه ، ومن رآه ازداد حباً له ٠ في سلوكه يتجلى ايمانه ، وفي زهده يتجلى ورعه وتقواه ٠

وقبل نهاية المطاف يجدر بنا أن نلم بشيء من مؤلفاته التي بقيت ذكرى جميلة تحيي في نفوسنا تلك الروح الطاهرة التي كانت مشعلاً من مشاعل الاسلام أدت واجبها الى آخر مدد من وقودها ٠

☐ **مؤلفاته :**

١ ــ القول الأعدل في تراجم بني الأهدل : في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ٠
٢ ــ رسائل صغيرة ٠
٣ ــ مقالات عديدة ومتنوعة ٠

وأخيراً لا بد لنا من الوقوف موقف الاعجاب والاكبار من هذه الشخصية الاسلامية الفذة التي جمعت الى جانب رفعة النسب وشرفه ،دماثة الخلق ، وقوة الايمان ، وحب الجهاد في سبيل الله ٠ والهدف من عرض بعض ملامح هذه الشخصية هو أن تكون لنا قدوة صالحة ، ونبراساً في طريق الخير وذكرى للمؤمنين ٠

رحمك الله يا أبا الأهدلي ٠٠٠ لقد كنت بشهادة معاصريك قاضياً نزيهاً ، وعالماً عاملاً ومسلماً مجاهداً حتى الرمق الأخير ، حتى انك لتتحرق ألماً على وضع المسلمين المزري ، وعبارتك الأخيرة التي لفظتها مع أنفاسك الأخيرة تدل بوضوح على رغبتك الجامحة في الاصلاح رغم قوة الجاهلية وعنادها ، فان كنت قد رحلت فقد بقيت عبارتك في مسمع الدهر تدل عليك وتذكرنا بك وتدفعنا للاقتداء بك ،هذه العبارة هي قولك (انني شهيد الألم) ٠
فرحمك الله رحمة واسعة وأسكنك فسيح جناته وجمعنا بك في ظلال رضوانه ٠